الإنسان يموت، وهو قاعد ولا يتغيَّر. فقالوا: اتِّباع السُّنَّة أولى. وطلع داود، فَغَسَله، ودفَعَ الثَّوبين إلى المرأتين، ولما ألحدوه قال له الحفار: يا شيخ
١٢٨ عبد الله، اذكُرْ ما عاهدتنا عليه. قال: ففتح عينيه، ونظر إليَّ شَزْراً، ودفن عند اللوزة يوم السبت، وقد جاوز ثمانين سنة، رحمة الله عليه[1].

ثم دخلتْ سنةُ ثماني عشرة وست مئة

ففيها توجَّه المُعَظَّم عيسى إلى أخيه الأشرف موسى، واجتمعا على حَرَّان، وكتبَ صاحِبُ ماردين ناصر الدِّين إلى الأشرف يسأله أن يُصْعِدَ المعظم إليه، فسأله، فسار إلى ماردين، فَنَزَلَ صاحِبُها، والتقاه في دُنَيْسر، وأصعده إلى القلعة، وخَدَمه خدمةً عظيمة، وقدَّم له التُّحَف والجواهر، وتحالفا واتفقا على ما أرادا، وزوَّج المُعَظَّمُ إحدى بناته ناصِرَ الدِّين صاحب ماردين. وزوَّج ابنَ ناصرِ الدين ابنته الأخرى، وخَلَعَ على جميع أصحابه، وأعطاهم الأموال، ورَجَعَ المُعَظَّم إلى حَرَّان.

وفيها وصلتِ الأخبارُ بوصول التَّاتار إلى كَرْماشاهان قريباً من بغداد، فانزعج الخليفة، وأمر النَّاسَ بالقنوت في الصَّلوات، وحَصَّنَ بغداد، واستخدمَ العساكر.

وفيها في جمادى الآخرة استردَّ المسلمون دِمْياط من الفرنج، وكان المُعَظَّم عيسى من أحْرَصِ النَّاس على خلاص دِمْياط وعلى الغَزَاة، وكان مُصَافياً لأخيه الكامل، وكان أخوهما الأشرف مقصِّراً في حَقِّ الكامل، وكان مبايناً له في الباطن، فلما اجتمعتِ العساكِرُ على حَرَّان، قَطَعَ بهم المُعَظَّم الفُرَات، وسار الأشرف في آثاره، وجاء المُعَظَّم، فنزل حِمْص، ونزل الأشرف سَلَمِيَّة.

قال أبو المظفر: وكنتُ قد خرجت من دمشق إلى حِمْص لطَلَبِ الغَزَاة،

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ).

فإنَّهم كانوا على عَزْمِ الدُّخول إلى طَرَابُلُس، فاجتمعتُ بالمُعَظَّم على حِمْص في ربيع الآخر، فقال لي: قد سَحَبْتُ الأشرف إلى هنا بأسناني، وهو كاره، وكل يوم أعتبه في تأخُّره، وهو يكاشر، وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مِصْر وهو صديقك، فأشتهي تروح إليه، فقد سألني عنك مراراً. ثم كتَبَ إلى أخيه كتاباً بخطِّه نحو ثمانين سطراً، فأخذته، ومضيتُ إلى سَلَمِيَّة، وبلغ الأشرفَ وصولي، فخرج من الخيمة، والتقاني، وعاتبني على انقطاعي عنه، وجرى بيني وبينه فضول، وقلت له: المسلمون في ضائقة، وإذا أخذ الفرنج الدِّيار المِصْرية ملكوا إلى حَضْرَمَوْت، وعَفُّوا آثار مكة والمدينة والشَّام، وأنتَ تلعب! قُمِ السَّاعةَ وارحل. فقال: ارمُوا الخيام والدِّهليز. فَسَبَقْتُهُ إلى حِمْص، والمُعَظَّم عينُه إلى الطَّريق، فلما قيل له: وَصَلَ فلان. رَكِبَ والتقاني، وقال: ما نمت البارحة، ولا أكلت اليوم شيئاً. فقلت: غداً بُكْرَةً يصبِّحُ أخوك على حِمْص. فدعا لي، ولما كان من الغد أقبلتِ الأطلاب، وجاء طُلْبُ الأشرف، والله ما رأيتُ أجملَ ولا أحسنَ رجالاً ولا أكملَ عُدَّة، فَسُرَّ المُعَظَّمُ سروراً عظيماً، وجلسوا تلك الليلة يتشاورون، فاتفقوا على الدُّخول في السَّحَر إلى طرابلس يشوِّشون على الفرنج، وكانوا على حالٍ، فأنطق الله الأشرفَ من غير قَصْدٍ، وقال للمُعَظَّم: يا خوند، عِوَض ما ندخل السَّاحل ونضعِّف خيلنا وعساكرنا، ونضيِّع الزمان، ما نروح إلى دِمْياط، ونستريح؟ فقال له المعظم: قول رُماة البُنْدُقِ؟ قال: نَعَمْ. فقبَّل المُعَظَّمُ قدَمَه، ونام الأشرف، فخرج المُعَظَّم من الخيمة كالأسد الضَّاري يصيح: الرَّحيلَ الرحيل إلى دمياط. وما كان يظنُّ أنَّ الأشرف يسمح بذلك، وساق المُعَظَّم إلى دمشق، وتَبِعَتْهُ العساكر، ونام الأشرف في خيمته إلى قريب
١٢٩ الظُّهْر، وانتبه، فدخل الحَمَّام، فلم يَرَ حول خيمته أحداً؛ فقال: وأين العساكر؟ فأخبروه الخبر، فسكت، وساق إلى دمشق، فَنَزَلَ القُصَيْر يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى، فأقام إلى سَلْخ جُمادى، وعَرَضَ العساكر تحتَ قلعة دمشق،

وكان هو وأخوه المعظم في الطَّيَّارة[١] في القلعة، وساروا إلى مصر غُرَّة جُمادى الآخرة[٢].

قلتُ: كنتُ حاضراً تحت القلعة، وتلك العساكر تمرُّ أميراً بعد أميرٍ، والنَّاسُ يتضرَّعون، ويدعون لهم بالنَّصْرِ، فاشتدَّتْ قُوى المسلمين، وأيقنوا بالظَّفَر.

ولأجلِ ما كان للملكِ المُعَظَّم من الآثار الجميلة في سَفَرِهِ إلى الشَّرْق لجَمْعِ هذه العساكر، والوصولِ بها إلى مِصْر قال شيخُنا أبو الحسن ـ رحمه الله ـ من جُمْلة قصيدةٍ له عند فَتْحِ دِمْياط:

سَرَى المَلِكُ المولى المُعَظَّم في الدُّجَى ... فأطْلَعَ نَجْمَ النَّصْرِ بعدَ مَغِيْبِهِ
وَرَدَّ على الإسلامِ بعد كآبةٍ ... سُروراً وداوى الدِّينَ بعدَ شُحُوبِهِ
تَجَلَّى بعيسى غَمُّها واغْتَدَى بها ... فريداً وأضحى فَخْرُها مِنْ نَصِيْبِهِ

وسمعتُ ممن يوثق به[٣] في مجلس شيخنا أبي الحسن السَّخاوي رحمهما الله يقول: إنه رأى في منامه في بعض تلك الليالي كأنَّ هاتفاً يقول له:

لا تيأَسَنَّ لِعُسْرَةٍ فوراءَها ... يُسْرانِ وَعْدٌ ليسَ فيه خِلافُ
كَمْ كُرْبَةٍ قَلِقَ الفتى لنزولها ... لله في أَغْطَافِها أَلْطافُ

قلتُ: والبيتان لأبي الفَتْح البُسْتي[٤].

قال أبو المُظَفَّر: وأما الفرنج الذين كانوا بدِمْياط فإنهم خرجوا بالفارس والرَّاجل، وكان البحر زائداً جداً، فجاؤوا إلى تُرْعةٍ، فأرسوا إليها، وفَتَحَ

(١) بناها المعظم في قلعة دمشق عند باب السر المشرفة على دار الطُّعم العتيقة، انظر «مرآة الزمان» (وفيات سنة ٦٢٤ هـ) ترجمة المعظم.

(٢) مرآة الزمان (حوادث سنة ٦١٨ هـ).

(٣) في (ب): أبو ثوبة!

(٤) البيتان في «ديوانه» ص ١٢٢ مع اختلاف في اللفظ.

المسلمون عليهم التُّرَع من كلِّ مكان، وأحدقتْ بهم عساكرُ الكامل، فلم يبقَ لهم وصولٌ إلى دِمْياط، وجاء أُسطول المسلمين، فأخذوا مراكبهم، ومنعوهم أن تصل إليهم مِيْرَةٌ من دمياط، وكانوا خَلْقاً عظيماً، وانقطعت أخبارُهم عن دمياط، وكان فيهم مئة كند، وثماني مئة من الخَيَّالة المعروفين، وملك عكا والدوك، واللوكات نائب البابا، ومن الرَّجَّالة مالا يُحصى، فلما عاينوا الهلاكَ أرسلوا إلى الكامل يطلُبون الصُّلْح والرّهائن، ويسلِّمونَ دمياط، فمن حِرْصِ الكامل على خلاص دمياط أجابهم، ولو أقاموا يومين أخذوا برقابهم، فبعثَ إليهم الكامل ابنَه الصَّالح أيوب، وابن أُخته شمس الملوك، وجاءت ملوكهم إلى الكامل، فالتقاهم، وأنعم عليهم، وضَرَبَ لهم الخيام، ووصَلَ المعظَّم والأشرف في تلك الحال إلى المنصورة في ثالث رجب، فجلس الكامل مجلساً عظيماً في خيمةٍ كبيرة عالية، ومدَّ سِماطاً عظيماً، وأحضرَ ملوك الفرنج والخيَّالة، ووقف في خدمته إخوتُهُ المعظم والأشرف وغيرُهما، وقام راجح الحِلِّي الشَّاعر، فأنشد:

هنيئاً فإنَّ السَّعْد راحَ مخلَّداً ... وقد أَنْجَزَ الرَّحمنُ بالنَّصْرِ مَوْعِدا

حَبَانا إلهُ الخَلْقِ فَتْحاً بَدَا لنا ... مُبيناً وإنعاماً وعِزًّا مُؤَبَّدا ١٣٠

تهلَّلَ وَجْهُ الدَّهْرِ بعد قُطُوبِهِ ... وأَصْبَحَ وَجْهُ الشِّرْكِ بالظُّلْمِ أسودا

ولمَّا طَغَى البَحْرُ الخِضَمُّ بأهله الـ ... ـطُّغاةِ وأضحى بالمَرَاكِبِ مُزْبدا

أقامَ لهذا الدِّينِ مَنْ سَلَّ عَزْمَهُ ... صقيلاً كما سُلَّ الحُسَامُ مُجَرَّدا

فلم يَنْجُ إلا كلُّ شِلْوٍ مُجَدَّلٍ ... ثَوَى منهمُ أو مَنْ تراه مُقَيَّدا

ونادى لسانُ الكَوْنِ في الأرض رافعاً ... عَقِيْرَتَهُ في الخافِقَيْنِ ومُنْشِدا

أَعُبَّادَ عيسى إنَّ عيسى وحِزْبَهُ ... وموسى جميعاً يَخْدُمونَ محمَّدا[1]

(١) مرآة الزمان (حوادث سنة ٦١٨ هـ).

قلتُ: وبلغني أنه وقت الإنشاد أشارَ عند قوله عيسى إلى المُعظَّم، وعند قوله موسى إلى الأشرف، وعند قوله محمداً إلى الكامل، وهذا من أحسنِ شيءٍ اتُّفِقَ.

قال أبو المُظَفَّر: ووقع الصُّلْح بين الكامل والفرنج يوم الأربعاء تاسع عشر رجب، وسار بعضُ الفرنج في البر، وبعضهم في البحر إلى عكا، وتَسَلَّم الكامِلُ دمياط، ووصلتِ العساكرُ الشَّرْقية والشَّامية وقد أخذ الكامل دمياط، وعاد المُعَظَّم إلى الشَّام، وأقام الأشرف بمِصْر عند الكامل، فغيَّر الله سبحانه القلوب، وصارا متصافيين، واتَّفقا على المُعَظَّم[١].

وفيها حَجَّ بالنَّاس من الشَّام أميرٌ يقال له شقيفات، وحَجَّ أبي إسماعيلُ معه تلك السنة. وحَجَّ بالنَّاس من العراق ابنُ أبي فراس، ومعه كتابُ الخليفة إلى مكة والمدينة بإعادة ولي العهد أبي نَصْر محمد إلى العهد، وكتَبَ إلى الآفاق بذلك.

وفيها[٢] ولَّى المُعَظَّمُ جمالَ الدِّين المِصْري الوكيل قضاءَ الشَّام، فكان يُكْتَبُ له في الأسجال: قاضي قضاة الشَّام، وذلك في رجب[٢].

وفيها توفي الشَّيخ الشِّهاب محمدُ بنُ خَلَف بن راجح، المقدسي الحنبلي[٣].

---

(١) مرآة الزمان (حوادث سنة ٦١٨هـ).

(٢ ـ ٢) هذا الخبر ليس في (ك) و(ع). وهو الصواب.

وكان جمال الدين المصري قد انضاف إلى نواب القاضي زكي الدين الطاهر بن محيي الدين سنة ٦١٦ هـ، وذلك أثناء لزوم الطاهر بيته إثر محنته، وحتى وفاته في ٢٣ صفر سنة ٦١٧ هـ. ثم سيذكر أبو شامة ص ٣٥٣ (في حوادث سنة ٦١٩ هـ) أنه استقل بالقضاء يوم الثلاثاء ٢٨ رجب سنة (٦١٩ هـ)، فما ذكر هنا من أن ولايته القضاء كانت سنة (٦١٨ هـ)، هو خطأ، لا أدري كيف وقع، وقد أهملت (ك) و(ع) ذكره، وهو الصواب. ومما يؤيد أنه استقل بالقضاء سنة (٦١٩ هـ) ما ذكره أحد قراء «المذيل» من أنه نقل ذلك أيضاً عمن له عناية بالتاريخ، انظر ص ٣١٩، وحاشيتنا رقم ٢ ص ٣٨٨ من هذا الجزء.

(٣) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٨ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ٣٦ ـ ٣٧، مشيخة ابن =

أحد شيوخ الصَّالحيين السَّاكنين بالدَّير بسفح جبل قاسيون، وكنت أراه يومَ الجمعة قبل الزَّوال يجلس على دَرَج المنبر السُّفْلي بجامع الجبل، وبيده كتابٌ من كُتُبِ الحديث أو أخبار الصَّالحين يقرؤه على النَّاس إلى أن يؤذِّن المؤذن للجمعة.

قال أبو المُظَفَّر: وكان زاهداً عابداً، وَرِعاً، فاضلاً في فنونِ العلوم، وسافر إلى بغداد، وسمع الكثير من شُهْدَة وابن البطي، ومشايخ الشَّام، وغيرهم. وحفظ «مقامات» الحريري في خمسين ليلة، فتشوَّشَ خاطره، وكان ممَّا يغسل باطن عينيه قد قلَّ نظره، وكانت وفاتُه يوم الأحد سَلْخ صَفَر، ودُفِنَ بقاسيون عند أهله، وكان سليمَ الصَّدْر، من الأبدال، ما خالف أحداً قط، رأيتُهُ يوماً وقد خَرَجَ من جامع الجبل، فقال له إنسان: ما تروح إلى بَعْلَبَكَّ. فقال: بلى. فمشى من ساعته إلى بَعْلَبَكَّ بالقَبْقاب[1].

قلتُ: وسيأتي ذِكْرُ ولديه القاضي نجم الدِّين أحمد[2]، والصَّلاح موسى[3].

وفيها توفي صاحِبُنا ضياءُ الدِّين عليُّ بن عبد السيد بن ظافر القوصي[4]، ١٣١
ابنُ أُخت الشِّهاب القوصي.

= البخاري: ٣٠٢ ـ ٣١٠، تاريخ الإسلام (ت ٥٦١، وفيات سنة ٦١٨ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٥٦ ـ ١٥٨، المختصر المحتاج إليه: ١/ ٤٤ ـ ٤٥، الوافي بالوفيات: ٣/ ٤٥، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٨ هـ)، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ١٢٤ ـ ١٢٥، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٥١، المقصد الأرشد: ٢/ ٤٠٥، المنهج الأحمد: ٤/ ١٤٠ ـ ١٤١، القلائد الجوهرية: ٢/ ٤٠٠، ٤٦٣ ـ ٤٦٤، شذرات الذهب: ٥/ ٨٢.

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٨ هـ).

(٢) ص ٥٥ من الجزء الثاني.

(٣) توفي سنة (٦٤٣ هـ)، وقد سها أبو شامة عن ترجمته كما وعد، وانظر ترجمته في سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٧٦، وذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٢٣٥، والمقصد الأرشد: ٣/ ١٠، والمنهج الأحمد: ٤/ ٢٥١. وقد سلف ذكره ص ٢٩٠ من هذا الجزء.

(٤) له ترجمة في الوافي بالوفيات: ٢١/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

كان من أصحاب شيخنا السَّخاوي، وشيخنا فخر الدين ابن عساكر، وله شِعْرٌ حَسَن، ومولده بقوص سنة تسعين وخمس مئة، وإجازتي من الشيخ عَلَم الدِّين في القراءات عندي بخطِّه.

وفيها في ليلة الجمعة الحادي والعشرين من رجب توفي خطيبُ بيت الأَبار الشيخ موفَّق الدِّين أبو عبد الله عمر بن يوسف بن يحيى بن كامل المَقْدِسي. وكان شيخاً صالحاً، وخَطَبَ على منبر دمشق مُدَّة غيبة الخطيب جمال الدين محمد الدَّوْلعي في الرِّسالة العادلية إلى بلاد الشَّرْق، رحمهما الله تعالى[1].

وفيها أو في السَّنة التي بعدها ـ في ثالث عَشَر رجب توفي الحافظُ المحدِّث، تقي الدِّين أبو طاهر إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن المِصْري، المعروف بابن الأنماطي[2].

كان في زمانه أحذقَ النَّاسِ بقراءة الحديث وكتابته، وإفادة الشيوخ، وحُسْنِ كتابة طبقات السَّماع، وحَصَّل كتباً كثيرة، وكتب بخطِّه أجزاء عديدةً، وكان سريعَ الكتابة والقراءة جِدًّا، مع معرفة بعلم الحديث، واطِّلاعٍ على دقائق فَنِّه، وكانتْ كُتُبُه تكون في البيت الغَرْبي بالكلَّاسة الذي كان بيد الملك المحسن أحمد بن صلاح الدِّين قبله، ثم انتقل منه لمَّا أُريد إسكان الشيخ عبد الصَّمد الدُّكَّالي الزَّاهد به، ثم بقي بيد أصحاب عبد الصَّمد إلى الآن[3]. وسمعتُ

(١) انظر ص ٣٠٠ من هذا الجزء.

(٢) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٨ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ٧٩ ـ ٨٠، طبقات علماء الحديث: ٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧، تاريخ الإسلام (ت ٦٠٠، وفيات سنة ٦١٩ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٧٣ ـ ١٧٤، تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٠٣ ـ ١٤٠٥، العبر للذهبي: ٥/ ٧٦، الوافي بالوفيات: ٩/ ١٤٦ ـ ١٤٧، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٨ هـ)، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٥١، ٢٥٤، حسن المحاضرة: ١/ ٣٥٥، شذرات الذهب: ٥/ ٨٤.
وسيعيد أبو شامة ذكره ص ٣٥٤ في وفيات سنة (٦١٩ هـ). وهو الصحيح في وفاته، كما جزم بذلك الذهبي وغيره.

(٣) يعني سنة (٦٥٩ هـ) كما ذكر ذلك أبو شامة مراراً.

الشيخ تقي الدين عثمان بن الصَّلاح رحمه الله يثني عليه بعد مَوْته في معرفة الحديث، ويتأسَّف لفقده على فوائِدَ كانت تحصل من عنده.

قال أبو المُظَفَّر: سَمِعَ الكثير، ولقي الشيوخ، وكانت وفاته بدمشق، ودُفِنَ بمقابر الصُّوفية في طريق المُنَيْبع، وصلَّى عليه الموفق الحنبلي بجامع دمشق، والفخر ابن عساكر بباب النَّصْر، والجمال المِصْري قاضي القضاة عند قبره، وكان سَمِعَ بمصر من البُوصيري، وابن المقدسي، وبدمشق من بركات بن إبراهيم الخُشُوعي، ورحل إلى العراق، فسمع أبا الفتح بن المَنْدَائي؛ وابن عبد السَّميع الهاشمي، وابن طَبَرْزَد، وابن سُكينة، وابن الأخضر، وحنبلاً. وقرأ على الشيخ تاج الدين الكِنْدي بدمشق «تاريخ» الخطيب، و«طبقات» ابن سَعْد، وشيئاً كثيراً، وكان ثِقَةً[1].

قلت: وقرأ على القاضي جمال الدين أبي القاسم بن الحَرَسْتاني من كُتُبِ البيهقي كثيراً مثل «السُّنَن الكبير» و«معرفة السُّنَن والآثار»، و«دلائل النبوَّة»، و«الآداب»، و«الدَّعَوات».

ثم دخلت سنة تسع عشرة وست مئة

ففيها ظهر بالشَّام جَرَادٌ كثير لم يُعهد مثله، فأكل الزَّرْعَ والشَّجَر والثمر، فأَظْهَرَ المعظمُ أن ببلاد العَجَم طيراً يقال له السمرمر يأكلُ الجَرَاد، فأرسل الصَّدْرَ البكري محتسب دمشق، ورَتَّب معه صوفية، وقال: تمضي إلى العَجَم، فهناك عينٌ يجتمع فيها السمرمر، فتأخذ من مائها في قوارير، وتعلِّقه على رؤوس الرِّماح، فكلما رآه السمرمر تَبِعَك، وما كان مقصوده إلا أن يبعث البكري إلى جلال الدِّين خوارزم شاه ليتفق معه لما بلغه اتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه، فاجتمع البكري بالخوارزمي، وقرَّر معه الأمور، وجعله سَنَداً

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٨ هـ).